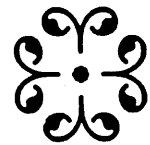

يونس
عليه السلام

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ (١٤٦) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾[1].

(١) الصافات: ١٣٩- ١٤٨.

obeikandl.com

وقال سبحانه: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾[2].

وقال تعالى أيضًا: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ (٤٨) لَوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (٤٩) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[3].

قال المفسرون: بعث الله تعالى يُونُسَ بْنَ مَتَّى ـ عليه السلام ـ إلى أهل نَيْنَوَى من أرض الموصل، فدعاهم إلى الله عَزَّ وجَلَّ، فكذبوه وتمردوا، وازدادوا كفرًا، فلما طال ذلك عليه مِنْ أَمْرِهِمْ خَرَجَ من بين أظهرهم، ووعدهم حلول العذاب بهم بعد ثلاثٍ.

قال ابن مسعود، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة، وغير واحد من السلف والخلف: فلما خرج من بين ظهرانيهم وتحققوا نُزولَ

(١) الأنبياء: ٨٧، ٨٨.
(٢) يونس: ٩٨.
(٣) القلم: ٤٨ ـ ٥٠.

العذاب بهم قذف الله فى قلوبهم التوبة والإنابة، وندموا على ما كان منهم إلى نبيهم، فلبسوا المسُوحَ [1]، وجَمعُوا بين كل بهيمة وولدها، ثم عَجُّوا[2] إلى الله عَزَّ وجل، وصرخوا وتضرعوا إليه، وتمسكنوا لديه، وبكى الرجال والنساء، والبنون والبنات، والأمهات، وجَأَرَت الأنعام والدواب والمواشى، فَرَغَتِ الإبلُ وفُصْلانُهَا، وخَارتِ البقر وأولادها، وثغَتِ الغنم وحملانها، وكانت ساعة عظيمة هائلة، فكشف الله العظيم ـ بحوله وقوته، ورأفته ورحمته ـ عنهم العذاب الذى كان قد اتصل بهم بسببه، ودار على رءوسهم كقطع الليل المظلم، ولهذا قال تعالى: ﴿**فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا**﴾[3] أى: هلا وجدت فيما سَلَفَ من القرون قريةً آمنت بكمالها؟ فدل على أنه لم يقع ذلك، بل كما قال تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ**﴾[4].

وقوله: ﴿**إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ**﴾[5].

(١) المسوح: جمع مِسْح، وهو الكساء من الشَّعَر.

(٢) عَجُّوا إلى الله تعالى بالدعاء: رفعوا أصواتهم به.

(٣) يونس: ٩٨.

(٤) الزخرف: ٢٣.

(٥) يونس: ٩٨.

وروى الترمذى، وابن جرير، وابن أبى حاتم، من حديث زهير، عَمَّنْ سمع أبا العالية قال: حدثنى أُبَىُّ بن كعب، أنه سأل رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾[1]، قال: يزيدون عشرين ألفًا، فلولا هذا الرجل المبهم لكان هذا الحديث فاصلاً فى هذا الباب. وعن ابن عباس قال: كانوا مائة ألف وثلاثين ألفًا.. وقيل غير ذلك.

وقوع المعجزة

لما ذهب يونس ـ عليه السلام ـ مغاضبا بسبب قومه، ركب سفينة فى البحر، فلجَّتْ بهم، واضطربت وماجت بهم، وثقلت بما فيها، وكادوا يغرقون، عندئذ تشاوروا فيما بينهم على أن يقترعوا، فَمَن وقعت عليه القرعة ألقوه من السفينة ليتخففوا منه، فلما اقترعوا وقعت القرعة على نبى الله يونس، فلم يسمحوا به، فأعادوها ثانية، فوقعت عليه أيضًا، فشمر ليخلع ثيابه ويلقى بنفسه، فأبوا عليه ذلك، ثم أعادوا القرعة ثالثة، فوقعت عليه أيضًا، لما يريده الله به من الأمر العظيم[2].

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى

(١) الصافات: ١٤٧.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير (١/ ٢٦٣).

﴿الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾[1].

وذلك أنه لما وقعت عليه القرعة أُلقى فى البحر، وبعث الله ـ عز وجل ـ حوتًا عظيمًا من البحر فالتقمه، وأمره الله تعالى ألاَّ يأكل له لحمًا، ولا يهشم له عظمًا فبقى حَيًّا فى بطن الحوت بإذن الله تعالى، فأخذه فطاف به البحار كلها، قالوا: ولما استقر فى جوف الحوت حَسِبَ أنه قد مات، فحرك جوارحه فتحركت، فإذا هو حى، فَخَرَّ لله ساجدًا، وقال: يارب، اتخذتُ لك مسجدًا لم يعبدك أحد فى مثْله! وقد اختلفوا فى مقدار لبثه فى بطنه، فقال الشعبى: التقمه ضُحًى ولَفظَهُ عشيةً. وقال قتادة: مكَثَ فيه ثلاثًا، وقال جعفر الصادق: سبعة أيام، ويشهد له شِعْرُ أُمية بن أبى الصلت:

وأَنْتَ بفضلٍ منكَ نَجَّيْتَ يُونُسًا ... وقد باتَ فى أضْعَافِ حُوتٍ لَيَالِيًا

وقال سعيد بن أبى الحسن وأبو مالك: مكث فى جوفه أربعين يومًا. والله أعلم بمقدار مَا لَبِثَ فى بطن الحوت.

ولما جعل الحوتُ يطوفُ به فى قرار البحار اللُّجِّيَّة، سَمِعَ تسبيح الحيتان للرحمن، وسمع تسبيحَ الحصى لفَالِقِ الحَبِّ والنَّوَى، ورَبِّ السمٰوات السبع، والأرضين السبع، وما بينها، وما تحت الثرى، وهنالك قال ما قال بلسان الحال والمقال، كما أخبر عنه ذو العزة

(١) الصافات: ١٣٩ ـ ١٤٢.

والجلال، الذى يعلم السر والنَّجْوَى، ويكشف الضر والبلوى، سامع الأصوات وإن ضعفت، وعالم الخفيات وإن دَقَّتْ، ومجيب الدعوات وإن عظمت، حيث قال سبحانه فى كتابه المبين: ﴿**وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ**﴾[1].

وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لما أراد الله حبس يونس فى بطن الحوت أوحى الله إلى الحوت أَنْ خُذْ ولا تخدش لحمًا، ولا تكسر عَظْمًا**». فلما انتهى به إلى أسفل البحر سمع يونس حِسًّا، فقال فى نفسه: ما هذا؟ فأوحى الله إليه وهو فى بطن الحوت: أَنَّ هذا تسبيح دَوَابِّ البحر. قال: فسبح وهو فى بطن الحوت، فسمعت الملائكةُ تسبيحَه، فقالوا: يا ربنا، إِنَّا نسمع صوتًا بأرض غريبة! قال: ذلك عبدى يُونُسُ، عصانى فحبسته فى بطن الحوت فى البحر. قالوا: العبد الصالح الذى كان يصعد إليك منه فى كل يوم وليلة عمل صالح؟ قال: نعم. قال: فشفعوا له عند ذلك. فَأَمَرَ الحوتَ فقذفه فى الساحل طَرِيًّا ضعيفًا، لا يتحمل حَرَارة القيظ ولا بَرْدَ الليل، كما ينزل الطفلُ من بطن أُمِّه.

(١) الأنبياء: ٨٧، ٨٨.

قال تعالى: ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾[1].

وعن أَنَسِ بن مالك، عن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ يُونُسَ النبى ـ عليه السلام ـ حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو فى بطن الحوت، قال: ﴿لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[2] فأقبلت الدعوة تحف بالعرش، فقالت الملائكة: يا ربِّ، صَوْتٌ ضعيف معروف من بلاد غريبة. فقال: أما تعرفون ذاك؟ قالوا: يا رب، ومَنْ هو؟ قال: عبدى يونس. قالوا: عبدك يونس الذى لم يزل يُرْفَعُ له عمل صالح ودعوة مجابة؟ يا ربنا أو لا ترحم ما كان يصنعه فى الرخاء فتنجيه من البلاء؟ قال: بلى. فأمر الحوتَ فَطَرَحَهُ فى العراء**».

قال ابن مسعود: طرحه الحوتُ كهيئة الفرخ ليس عليه ريش. وقال ابن عباس والسدى وابن زيد: كهيئة الصَّبِىِّ حين يُولَد ليس عليه شئ. وقوله سبحانه: ﴿**وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ**﴾[3] قال ابن مسعود، وابن عباس، وغير واحد: هو القَرْعُ.

وقال بعض العلماء: فى إنبات القرع عليه حِكْمَة بالغة، منها: أن وَرَقَهُ غاية فى النعومة، وكثيرٌ، وظليل، ولا يقربه ذُباب، ويُؤْكَل

(١) الصافات: ١٤٥.
(٢) من الآية (٨٧) الأنبياء
(٣) الصافات: ١٤٦.

ثمره من أول طلوعه إلى آخره نيئًا ومطبوخا، وبقشره، وببذره أيضًا، وفيه نَفْعٌ كثير، وتقوية للدماغ، وغير ذلك.

وهذا من رحمة الله تعالى به، ونعمته عليه، وإحسانه إليه، ولهذا قال تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾[1]، أى: الكرب والضيق الذى كان فيه ﴿وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾[2]، أى: وهذا صنيعنا بكل مَنْ دعانا واستجارَ بنا.

وَعَنْ سعد بن أبى وقاص، قال: سَمِعْتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**اسمُ الله الذى دُعِىَ به أَجَابَ، وإذا سُئِلَ به أَعْطَى، دَعْوَةُ يُونُسَ بن متَّى. قال: فقلتُ: يا رسول الله، أَهِىَ ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين؟ قال: هى ليونس خاصة، وللمؤمنين عامة إذا دعوا بها، ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِى الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَٰهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾**»[3].

* * *

(١)، (٢) الآية (٨٨) الأنبياء.

(٣) الأنبياء: ٨٧، ٨٨.